المحاضرة 2: الفن البدائي والفن الحجري القديم

1.الأهداف التعلّمية

بنهاية هذه المحاضرة، يكون الطالب قادرًا على:

.فهم الإطار الزمني والجغرافي للعصر الحجري القديم (الباليوليتي)، وتمييز مراحله الكبرى.

.التمييز بين نوعي الفن في هذه الحقبة: الفن الجداري (فن الكهوف) والفن المحمول (فن النقل).

.تحليل أبرز النماذج الفنية (كهوف لاسكو، ألتاميرا، شوفيه، تماثيل فينوس) من حيث التقنية والموضوع.

.تقييم التفسيرات المختلفة لفن ما قبل التاريخ (سحر الصيد، الشامانية، الطوطمية، الكونوغونيا).

.تطبيق منهجية تحليلية على نموذج فني من العصر الحجري القديم.

2.الإطار العام: العصر الحجري القديم (الباليوليتي)

2.1.التعريف والحدود الزمنية

الباليوليتي (Paleolithic) هو أقدم عصور العصر الحجري، ويمتد من نحو 2.6 مليون سنة إلى نحو 12,000–10,000 سنة ق.م. عاش الإنسان في هذه الفترة متنقّلًا، جامعًا للطعام، معتمدًا على الصيد والالتقاط، قبل أن يعرف الزراعة والاستقرار.

2.2.مراحل الباليوليتي

المرحلة الإطار الزمني التقريبي أهم المظاهر

الباليوليتي الأسفل(Lower Paleolithic) 2.6 مليون – 250,000 ق م أدوات حجرية بدائية (الفؤوس اليدوية)، إنسان منتصب.

الباليوليتي الأوسط(Middle Paleolithic) 250,000 – 40,000 ق م تقنية لوفالوا، إنسان نياندرتال، بدايات رمزية.

الباليوليتي الأعلى(Upper Paleolithic) 40,000 – 10,000 ق م الإنسان العاقل(Homo sapiens) ، ازدهار الفن.

ملاحظة جوهرية: الفن التشكيلي الواضح والموثّق يبدأ فعليًا في الباليوليتي الأعلى، حيث ظهرت رسوم الكهوف والنحت الصغير بخصائص فنية متطورة. قبل ذلك، كانت المظاهر الفنية محدودة إلى رموز بسيطة وآثار أيادٍ.

2.3.التقسيم الثقافي للباليوليتي الأعلى

الحقبة	الإطار الزمني	أهم ما يميزها فنيًا
الأورينياسي(Aurignacian)	40,000 – 28,000 ق.م	أقدم رسوم الكهوف، تماثيل فينوس الأولى، آثار أيادٍ
الغرافيتي (Gravettian)	28,000 – 22,000ق.م	انتشار تماثيل فينوس، فن محمول غني
السولوترين (Solutrean)	22,000 – 17,000ق.م	تقنيات نقش دقيقة، أوراق الغار الحجرية
الماداين (Magdalenian)	17,000 – 12,000ق.م	ذروة فن الكهوف: لاسكو، ألتاميرا، نيو

3. خصائص الفن في العصر الحجري القديم

3.1. الوظيفية السحرية والدينية

لم يكن فن الباليوليتي "فنًا للفن"، بل كان مرتبطًا بالبقاء والطقوس. في مجتمعات الصيادين، تطورت علاقة خاصة بين الإنسان والحيوان، ما دفع إلى أداء طقوس سحرية لضمان نجاح الصيد. رسم الحيوان على جدار الكهف كان عملًا سحريًا: السيطرة على صورة الحيوان تعني السيطرة عليه في الواقع. هذا ما يُعرف بـ "سحر الصيد" أو "سحر التعاطف.(Sympathetic Magic) "

3.2. الموضوعات: الحيوان في المقام الأول

الحيوانات هي الموضوع المهيمن في فن الباليوليتي: البيسون، الخيول، الماموث، الغزلان، الأسود، وحيد القرن. الإنسان نادر الحضور، وعندما يظهر يكون غالبًا برأس حيواني أو في وضعيات غير واضحة، ما يعكس الاندماج الرمزي بين الإنسان والطبيعة.

3.3. الواقعية النسبية والحركة

يمتاز فن الباليوليتي بـ واقعية مدهشة في تصوير الحيوانات، مع اهتمام بالحركة والوضعيات الطبيعية (الجري، الصراع، الرعي). لكن هذه الواقعية ليست "تقليدًا" بالمعنى الحديث؛ إنها واقعية رمزية: تلتقط جوهر الحيوان وقوته، لا تفاصيله التشريحية الدقيقة.

3.4. غياب المنظور والتركيب المكاني

لا نجد في فن الكهوف منظورًا خطيًا ولا خلفية مكانية. الأشكال تُرسم على مستوى واحد، مع تراكب (superposition) ينتج عن الرسم فوق رسوم أقدم. الكهف ليس "لوحة" بل فضاء طقسي، والرسم يتفاعل مع تضاريس الجدار الطبيعية.

3.5. انعدام التوقيع والفردية

لا نعرف أسماء فنان الكهوف. الفن كان جماعيًا وطقسيًا، وليس تعبيرًا فرديًا. هذا لا ينفي وجود مهارة تقنية عالية و حسّ جمالي واضح.

4. الفن الجداري: كهوف الباليوليتي الأعلى

4.1. كهف شوفيه — (Chauvet) فرنسا

·الاكتشاف: 1994.

·التأريخ: نحو 36,000 سنة، مما يجعله أقدم كهف مزخرف معروف في العالم.

·الموضوعات: أسود، وحيد القرن، ماموث، خيول، دببة. ميزته الحيوية والحركة والتقاط الصراع بين الحيوانات.

·التقنيات: نقش، رسم بالفحم، استخدام تضاريس الجدار لخلق عمق. الرسوم متقنة ومتقنة منذ هذه الفترة المبكرة، ما يدل على تقاليد فنية راسخة.

4.2. كهف ألتاميرا — (Altamira) إسبانيا

·الاكتشاف: 1879 (على يد مارسيليو سانز دي سوتولا وابنته ماريا).

·التأريخ: الماداليين، نحو 14,000 سنة.

·الموضوعات: بيسون بألوان متعددة (أحمر، أصفر، أسود)، خيول، غزلان.

·الميزة الفنية: سقف متعدد الألوان(Polychrome Ceiling) ، استخدام الألوان الممتزجة والتظليل، والاستفادة من نتوءات الجدار لخلق حسّ حجمي للبيسون. يُلقّب بـ "كنيسة الفن الرباعي.(Chapelle Sixtine de l'art quaternaire) "

4.3.كهف لاسكو — (Lascaux) فرنسا

·الاكتشاف: 1940 (على يد مجموعة أطفال).

·التأريخ: المادالين، نحو 17,000 سنة.

·البنية: قاعة الثيران(Salle des Taureaux) ، ممر المحراب(Diverticule Axial) ، حفرة البئر.(Puits)

·الموضوعات: ثيران ضخمة (أوروكس)، خيول، غزلان، بيسون. أكثر من 600 رسم و1,500 نقش.

·الميزة الفنية: تركيب فني معقد، استخدام الألوان (المغرة الحمراء، أكسيد المنغنيز الأسود)، حركة الحيوانات وتنوعها. الكهف يُظهر تنظيمًا مكانيًا للرسوم، مما يشير إلى مشروع فني واعٍ.

·مشهد البئر: المشهد الوحيد الذي يظهر فيه إنسان بشكل كامل: رجل برأس طائر أمام بيسون جريح، مع وحيد قرن يبتعد. يُفسَّر عادة كـ مشهد شاماني أو أسطورة خلق.

4.4.كهوف أخرى مهمة

الكهف	البلد	الحقبة	ما يميزه
نيو(Niaux)	فرنسا	المادالين	"الصالون الأسود"، رسوم بيسون وخيول
كوسكي(Cosquer)	فرنسا	27,000– 19,000 ق م	رسوم تحت الماء، أيادٍ سلبية
تروا فرير(Trois-Frères)	فرنسا	المادالين	"سيد الحيوانات" (شامان برأس حيواني)

5.الفن المحمول (فن النقل)

5.1.التعريف

الفن المحمول (Portable Art / Mobiliary Art) هو القطع الفنية الصغيرة التي كان الإنسان يصنعها ويحملها معه: تماثيل، ألواح عظمية منقوشة، أدوات مزخرفة، حلي. هذا النوع من الفن ينتشر في الباليوليتي الأعلى، ويُصنع عادة من العاج، العظم، القرن، الحجر.

5.2. تماثيل فينوس(Venus Figurines)

·التعريف: تماثيل صغيرة لأنثى، عادة عاضية أو حامل، بارزة الأرداف والثديين، بلا ملامح وجه في الغالب. صنعت من الحجر أو العاج أو العظم.

·التأريخ: نحو 30,000–20,000 سنة.

·أشهرها:

· فينوس ويلندورف (النمسا): من الحجر الجيري، ارتفاع 11 سم، نحو 22,000–24,000 ق.م. تظهر بخصائص أنثوية مبالغ فيها، بلا وجه، وذراعان نائمتان على الصدر.

· فينوس ليسبوغ (فرنسا): من العاج، أقل مبالغة في الأشكال.

· فينوس براسيمبوي (فرنسا): من العاج، لها وجه منقوش بدقة، من أقدم النماذج الواقعية للوجه البشري.

·التفسير السائد: مرتبطة بالخصوبة والخصب، وربما تمثل إلهة أم أو رمزًا لاستمرار الحياة. تُستخدم في طقوس جماعية أو فردية لضمان الإنجاب والوفرة.

·تفسير بديل: قد تكون رمزًا للبقاء في ظروف مناخية قاسية، حيث تمثل المرأة البدينة القدرة على التكيف مع البرد والجوع.

5.3.نقوش العظم والقرن

·القطع المنقوشة: ألواح عظمية أو قرنية تحمل رسومًا لحيوانات، رموزًا هندسية، أو مشاهد صيد.

·الوظيفة: قد تكون أدوات طقسية، آلات موسيقية (مزامير من العظم)، أو مقتنيات شخصية.

·أمثلة: مزامير من العظم في كهوف أوروبا الغربية، ألواح منقوشة في أبري بلانشار (فرنسا.(

6.تقنيات الفن في الباليوليتي

6.1.المواد والألوان

·الألوان: استخدم الفنانون المغرة (ochre) الحمراء والصفراء، أكسيد المنغنيز الأسود، الفحم، الطين. هذه المواد كانت تُجمع من الطبيعة وتُطحن وتُخلط مع الدهون الحيوانية أو الماء لتثبيتها.

·الأدوات: أصابع اليد، فُرش بدائية من الشعر أو الطحالب، أنابيب النفخ (لرش الألوان)، أدوات حجرية للنقش.

6.2.تقنيات التنفيذ

التقنية	الوصف
الرسم(Peinture)	استخدام الألوان السائلة أو المعجون
النقش(Gravure)	حفر الخطوط بأداة حجرية أو عظمية
الرسم بالأصابع(Tracés digités)	خطوط مرسومة مباشرة بالأصابع في الطين اللين
الرش(Pulvérisation)	رش الألوان بالفم لخلق آثار أيادٍ سلبية
النحت(Sculpture)	نحت التماثيل من العاج والحجر
النمذجة(Modelage)	تشكيل الطين (نادرًا)

6.3.استغلال تضاريس الكهف

لم يكن الكهف سطحًا محايدًا، بل كان الفنان يستغل نتوءات الجدار وانحناءاته لخلق حسّ حجمي أو عمق. في ألتاميرا، رسم البيسون على نتوءات الجدار لتظهر أكثر ضخامة؛ في لاسكو، استُخدمت الشقوق الطبيعية لرسم أعناق الحيوانات أو فصل الألوان.

7.تفسيرات فن الباليوليتي: النظريات الكبرى

7.1.نظرية سحر الصيد (Hunting Magic)

·الرائد: هنري بروي (Henri Breuil) وآخرون.

·المبدأ: رسم الحيوان جريحًا أو مأسورًا على الجدار هو طقس سحري يهدف إلى ضمان نجاح الصيد. "الشبيه ينتج الشبيه."

·الانتقادات: عدد الصور "المجروحة" محدود جدًا، والرسوم غالبًا لا تُظهر مشاهد صيد فعلية.

7.2.النظرية الشامانية (Shamanism)

·المبدأ: كان الفن نتاج تجربة الشامان في حالة انخطاف .(trance) الكهف يمثل عالمًا آخر، والرسوم هي رؤى يراها الشامان في رحلته الروحية.

·الأدلة: "مشهد البئر" في لاسكو (رجل برأس طائر)، "سيد الحيوانات" في تروا فرير (شامان برأس حيواني)، الاندماج بين الإنسان والحيوان في بعض الرسوم.

·النقاد: يرون أن هذا التفسير يعمم ظاهرة الشامانية على كل الفن، دون أدلة كافية.

7.3.نظرية الطوطمية (Totemism)

·المبدأ: كل جماعة بشرية لها طوطم (حيوان حامٍ) ترتبط به قرابة روحية. رسم الحيوان الطوطمي هو تعبير عن الهوية الجماعية.

·الدلائل: تكرار أنواع معينة من الحيوانات في مناطق محدودة، ارتباطها بمجموعات بشرية معينة.

7.4.نظرية الكونوغونيا (Cosmogony)

·الرائد: نوربرت أوجولات (Norbert Aujoulat) وآخرون.

·المبدأ: كهف لاسكو ليس "معرضًا"، بل كتاب كوني يروي أسطورة الخلق وتجدد الحياة. تسلسل الرسوم (خيول ← ثيران ← غزلان) يعكس دورة الفصول و دورة الحياة والموت والبعث.

·الأدلة: الترتيب المكاني للرسوم، ارتباطها بمواضع محددة في الكهف، تكرار أنماط معينة.

7.5.تفسير "العلامات الأنثوية"

·يرى بعض الباحثين أن كثيرًا من الرموز الهندسية (نقاط، خطوط، أشكال بيضاوية) قد تكون رموزًا أنثوية مرتبطة بالخصوبة. في هذا التفسير، الكهف نفسه يمثل الرحم الكوني، والرسوم هي مراحل التكوين.

8.الانتقال إلى النيوليتي: نهاية الفن البدائي

8.1.الثورة الزراعية

نحو 10,000 ق.م، بدأ الإنسان في تدجين الحيوان والزراعة، وانتقل من الترحال إلى الاستقرار. هذا التحول غيّر طبيعة الفن: من فن كهوف إلى فن الفخار والعمارة الميغاليتية.

8.2. فن النيوليتي

·الفخار: أشكال جديدة، زخارف هندسية (خطوط، مثلثات، دوائر)، ألوان متعددة. الفخار أصبح أداة تخزين وطقوس، وليس فقط نفعيًا.

·النصب الميغاليتية: دولمن (غرفة دفن من أحجار ضخمة)، منير (حجر عمودي منتصب)، كروملیك (دائرة حجرية). أشهرها ستونهنج في إنجلترا، الذي بدأ بناؤه نحو 3000 ق.م، وربما كان مرصدًا فلكيًا و معبدًا.

·تماثيل النيوليتي: تماثيل الأم، تماثيل الحيوانات، أقنعة. في تشاتال هويوك (تركيا، 7500–5700 ق.م)، عُثر على تماثيل نسائية و رؤوس ثيران مزخرفة، مما يشير إلى طقوس خصوبة وطقوس دينية معقدة.

·الرسوم الجدارية: استمرت في بعض المواقع، مثل جداريات تشاتال هويوك التي تصور مشاهد صيد ورقص.

9. المصطلحات الأساسية (مُفصّلة)

المصطلح	التعريف
باليوليتي(Paleolithic)	العصر الحجري القديم، أقدم عصور العصر الحجري، يمتد من 2.6 مليون سنة إلى 10,000 ق.م.
فن جداري(Parietal Art)	الفن المرسوم أو المنقوش على جدران الكهوف.
فن محمول(Portable Art)	القطع الفنية الصغيرة القابلة للحمل (تماثيل، أدوات مزخرفة).
مغرة (Ochre)	صبغة طبيعية من أكسيد الحديد، تُستخدم للرسم بالأحمر والأصفر.
سحر الصيد(Hunting Magic)	نظرية تفسر فن الكهوف كطقس سحري لضمان نجاح الصيد.
شامانية(Shamanism)	نظام معتقدات يقوم على شخصية الشامان كوسيط بين العالم البشري والعالم الروحي.
طوطمية(Totemism)	قرابة روحية بين جماعة بشرية وحيوان أو نبات.
فينوس(Venus)	تماثيل أنثوية صغيرة من الباليوليتي الأعلى، مرتبطة بالخصوبة.
ميغاليت(Megalith)	أحجار ضخمة استُخدمت في بناء نصب ما قبل التاريخ.
دولمن(Dolmen)	غرفة دفن من أحجار ضخمة عمودية مع سقف حجري.
منير(Menhir)	حجر عمودي منتصب.
كروملیك(Cromlech)	دائرة من الأحجار العمودية.

10. نشاط تطبيقي مُفصّل: تحليل "قاعة الثيران" في كهف لاسكو

10.1. تعريف بالعمل

"قاعة الثيران (Salle des Taureaux) "هي أكبر قاعة في كهف لاسكو، وتضم أضخم الرسوم. يبلغ طولها نحو 20 مترًا، وتُزيّن جدرانها بـ ثيران ضخمة (أوروكس)، خيول، غزلان، ودببة. الثيران هي العنصر المهيمن، ويصل طول أحدها إلى 5 أمتار.

10.2. تطبيق المستوى الأول: الوصف الشكلي

·العناصر: خمسة ثيران ضخمة (أوروكس)، مجموعة خيول، غزلان، دب.

·التكوين: الثيران موزعة على الجدارين، بعضها في مواجهة، بعضها في حركة.

·الألوان: أسود (أكسيد المنغنيز)، أحمر (مغرة)، أصفر.

·الخطوط: خطوط كفافية سميكة، مع تظليل في بعض المناطق.

·الوضعيات: الثيران في وضعيات جانبية(profile) ، لكن قرونها مرسومة أماميًا — وهو انحراف مقصود عن المنظور الطبيعي.

10.3.تطبيق المستوى الثاني: التحليل الأيقونوغرافي

·الثور (الأوروكس): رمز للقوة والخصوبة. في كثير من الثقافات، الثور يمثل الذكر المهيمن و القوة الإنجابية.

·الخيول: رمز للحركة والسرعة، وقد تكون مرتبطة بالحرب أو الصيد.

·الغزلان: رمز للخفة والحذر.

·الدب: رمز للقوة البدائية و سيد الكهف.

·التركيب: الثيران محيطة بالحيوانات الأخرى، وكأنها تحرس المكان أو تترأس المشهد.

10.4.تطبيق المستوى الثالث: التفسير الأيقونولوجي

·الفرضية الكونوغونية: وفق نوربرت أوجولات، تسلسل الرسوم في لاسكو يعكس دورة الفصول: الخيول في الربيع، الثيران في الصيف، الغزلان في الخريف. قاعة الثيران تمثل لحظة الذروة في دورة الحياة — الصيف، حيث القوة والخصوبة في أقصاهما.

·الفرضية الشامانية: القاعة قد تكون مكانًا لطقوس الانخطاف، حيث يدخل الشامان في حالة تواصل مع أرواح الحيوانات.

·الفرضية الطوطمية: الثور قد يكون الطوطم الرئيسي للجماعة التي سكنت الكهف، ورسمه يعزز الهوية الجماعية و يربط الجماعة بأصلها الأسطوري.

10.5.خلاصة النشاط

"قاعة الثيران" ليست معرضًا للصور فقط، بل هي فضاء طقسي يحمل معنى أسطوريًا. الثيران ليست مجرد حيوانات، بل رموز للقوة والخصب والاستمرار. الكهف نفسه، في هذا التفسير، هو كتاب كوني يروي قصة الحياة والموت والبعث.

11.أسئلة للنقاش والتقويم

.1سؤال تحليلي: لماذا كان الحيوان الموضوع المهيمن في فن الباليوليتي؟ ما دلالة غياب الإنسان؟

.2سؤال تطبيقي: طبّق مستويات بانوفسكي الثلاثة على تمثال فينوس ويلندورف: ابدأ بالوصف الشكلي، ثم التحليل الأيقونوغرافي، ثم التفسير الأيقونولوجي.

.3سؤال نقدي: أي التفسيرات (سحر الصيد، الشامانية، الطوطمية، الكونوغونيا) تراها الأكثر إقناعًا؟ ولماذا؟ ما نقاط ضعف كل نظرية؟

.4سؤال مقارن: قارن بين فن الكهوف (لاسكو، ألتاميرا) وفن النيوليتي (الفخار، النصب الميغاليتية) من حيث الوظيفة والموضوع والتقنية.

12.مراجع مُقترحة لهذه المحاضرة

·غومبريتش، قصة الفن — الفصل الأول: "الفن البدائي."

.خزعل الماجدي، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، دار الشروق، عمّان

.شمس الدين فارس وزملاؤه، تاريخ الفن القديم — فصل فن ما قبل التاريخ

· Aujoulat, N., Lascaux: Le geste, l’espace et le temps, Seuil, 2004.

· Clottes, J., & Lewis-Williams, D., The Shamans of Prehistory, Abrams, 1998.

· Leroi-Gourhan, A., Préhistoire de l’art occidental, Mazenod, 1965.

· Bahn, P., & Vertut, J., Journey Through the Ice Age, University of California Press, 1997.

هذه المحاضرة تُرسي الأساس المعرفي لفهم فن ما قبل التاريخ، وتُهيّئ الطالب لدراسة فنون الحضارات القديمة (مصر، بلاد الرافدين، اليونان، روما) التي ستأتي في المحاضرات اللاحقة. الطالب الذي يستوعب الوظيفة الطقسية السحرية والدينية لفن الباليوليتي، ويفهم العلاقة بين الفن والبيئة والبقاء، يكون قد اكتسب مفتاحًا تفسيريًا لفهم كل الفن القديم: الفن، في العصور القديمة، لم يكن ترفًا أو متعة، بل كان ضرورة وجودية.